

خراريف قراءة في بنية الموروث الحكائي الشعبي الإماراتي

الاتحاد · 2008-03-21

التعليم والمعرفة

خراريف قراءة في بنية الموروث الحكائي الشعبي الإماراتي

22 مارس 2008 03:15

عن دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة، صدر كتاب (خراريف) للكاتب والباحث الإماراتي عبد العزيز المسلّم. ومنذ سنوات يعمل المسلّم في حقل التراث الشعبي وفروعه المعرفية التي تندرج في فضائه، وهو في كل مساعيه يحاول النفاذ إلى مكنونات هذا التراث بمختلف نصوصه الشفاهية والمدوّنة، المنظورة وغير المنظورة، الشاهدة على عصرها أو المضمرة فيما وراء المرئي فيه، المرغوب فيها تداولاً أو المسكوت عنها توارياً في ظل حراك ثقافي إماراتي واعد يجتهد باحثوه في ترسيم حدود هويته وخطابه.

ينتمي كتاب (خراريف) إلى هذا العشق الوجودي للهوية الثقافية، وعلى الجهد الذي بذله المسلّم فيه، ويمكن اعتبار هذا الكتاب الأكثر تماساً مع جوهر التراث الشفاهي في الإمارات؛ لأنه يذهب بنا ليس إلى سردية الحكاية الشعبية في معاملها القصصية فقط، إنما إلى ما بعدها، إلى حقل مكّنات الحكاية، وتحديدًا إلى الكائنات الرئيسة أو المحورية فيها؛ تلك الكائنات التي هي بنت الخيال بقدر ما هي بنت الواقع، بنت الكائن بقدر ما هي بنت المفترض أن يكون، بنت المعقول بقدر ما هي بنت اللامعقول، وهكذا..

الكائن الرادع!

الخزّوفة في هيئتها العامة، يقول المسلّم (تدخل ضمن أقسام الأدب الشعبي تحت باب الحكايات الخرافية، أما في صفتها الخاصة ومضمونها، فإنها تأتي ضمن باب المعتقدات الشعبية وصيانة التقاليد؛ فلكل انحراف خلقي أو انحلال اجتماعي، كان هناك كائن خرافي مخيف مهمته ردع من تجرّأ على تجاوز الحدود). ويعود مرة أخرى لتعريف ما أسماه بـ "الخريفة" التي هي (حكاية مغناة تقال لمن بلغوا الثانية من العمر وأكثر).

واضح من هذا النّص، أن المؤلف يتحدث عن الخزّوفة من حيث جنسها الأدبي، لكنه يتحدث أيضاً وعلى نحو مقتضب عن أسباب تداولها في المجتمع ودواعي وجودها بين الناس. لكننا نجد المسلّم وفي صفحات الكتاب غالباً ما يأتي على العلاقة بين الخزّوفة وطبيعة علاقتها بالمجتمع من حيث القبول والرفض، ومن حيث الأثر والتأثير في حدود المجتمع الإماراتي بل وفي مجتمعات أخرى في محاولة منه لإضاءة النّص بالتحليل والتفسير ودعمه بالقرائن والنظائر في غير مجتمع: ففي مجمل تحليله لخزّوفة (أم الصبيان) نراه يلجأ إلى المعاجم العربية بقصد التحليل اللغوي، ويعوّل على تعدد التسمية، ففي الإمارات تسمى أم الصبيان بـ (المكروهة)، و(اللي ما تنظرا)، وفي الشام تسمى (أم القرينة)، وتسمى في الآثار بـ (أم ملدم). أما عن التحليل السوسولوجي في جانبه التداولي لهذه الحكاية، فيذهب المؤلف بنا إلى الطريقة التي كان الناس يتخلّصون فيها من شر أم الصبيان باللجوء إلى الأدعية وقراءة آيات من (القرآن الكريم)، وغير ذلك من الوسائل التي تقي الناس شر أم الصبيان.

وهكذا الأمر مع (بو السلاسل)، هذا الكائن الخرافي الذي له تسميات عديدة أخرى، منها: (العبد المزنجل)، و(بو الصناقل)، و(المصنقل)، وغير ذلك. وهنا يعتقد المؤلف أن شخصية بو السلاسل قد تكون من نسج الخيال المحلي الإماراتي، لكنها على علاقة وثيقة بالإبداع الشعبي ضمن أدب العامّة.

